أعلام أدب الرحلات المغاربية
رحلة محمد الأمين الشنقيطي إلى الحج.

د. جلول دواجي عبد القادر
جامعة الشلف

الملخص: الرحلة في طلب العلم أمر معهود في حياة العلماء والأمر كذلك بالنسبة للحج، فالعالم لابد له من إتمام أركان الإسلام بالحج إلى بيت الله الحرام طاعة لله وامتثالا لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واقتداء لمن يكون بعده من تلامذة وأولاد وآخرين من عامة الناس، وهذا ما تتناوله هذه الورقة البحثية عن رحلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي إلى بيت الله الحرام، فعندما انتهى من رحلة طلب العلم بالمحاضر الشنقيطية عزم على الحج إلى بيت الله الحرام عن طريق البر وعلى نية العودة بعد أداء الفريضة، وما أن وصل إلى البلاد حتى اتصل ببعض علمائها وقرأ بعض كتب الدعوة من مؤلفات الشيوخ والعلماء انقلب ثَم عزمه على العودة إلى رغبة في البقاء وشاخ هناك حتى وافاه الأجل.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الرحلي، الرحلة، محمد الأمين الشنقيطي، الرحالة، المسار، الفضاء.

تمهيد: الرحلة فن من فنون القول الأدبي يتضمن الحديث في مختلف مظاهر الحياة، فعند الاطلاع على كتب الرحالين العرب يتبدى اجتماع فنون وعلوم عديدة في هذا الفن الرحلي من القول، كالتاريخ والجغرافيا والأنثربولوجيا والأدب والاقتصاد والدين والفقه والميثولوجيا.....، فالرحلة سجل ثري لهذه العلوم ومنبع خصب لمختلف مظاهر الحياة، فالرحالة يسمع ويشاهد ويحفظ ويختبر ويحاور ويفكر ويَسأل ويجيب ويُسأل ويجاب ويعطي ويُجازَى وأيضا يكتب ويسجل ويوثق كل ذلك في رحلته، ومن عنده نستلهم المعرفة والحقيقة، وهذا ما سنتحدث عنه في رحلة "محمد الأمين الشنقيطي" في رحلته من موريتانيا إلى بيت الله الحرام بالحجاز.

1-الرحلة ومفهومها: تتفق المعاجم العربية في أن جذر "رحل" يشترك في معنى عام هو السير والحركة طلبا لأمر ما، ولنأخذ مثلا معجم لسان العرب لابن منظور قوله: "الرَّحْل: مَرْكَبٌ للبعير والناقة وجمعه أَرْحُلٌ و رحالٌ .... وانتهينا إلى رِحَالِنا أَي منازلنا، والرَّحْل: مسكن الرجل وما يصحبه من الأَثاث، وفي الحديث : إِذا ابْتَلَّت النِّعال فالصلاة في الرِّحال أَي صَلُّوا رُكْباناً ..... وقال ابن الأَثير: فالصلاة في الرِّحالِ يعني الدُّور والمساكن والمنازل وهي جمع رَحْل .... قال ابن سيده: والرِّحالة في أَشْعار العرب السَّرْجُ ...والجمع الرَّحائل .... ابن سيده: ورَحَل البعير يَرْحَلُه رَحْلاً فهو مرحول ورَحِيل وارْتَحَلَه: جعل عليه الرَّحْل ورَحَله رَحَلةً: شدَّ عليه أَداته... وفي الحديث: أَن النبي سجد فرَكِبه الحسن فأَبطأَ في سجوده فلما فرغ سئل عنه فقال: إِن ابني ارْتَحَلني فكرهت أَن أُعْجِله أَي جَعَلني كالراحلة فرَكِب على ظهري ..... يقال: رَحَل الرجلُ إِذا سار و أَرحلته أَنا، ورجل رَحْول وقوم رُحَّل أَي يرتحلون كثيراً، ورَجُل رَحَّال: عالم بذلك مُجيدٌ له ..... والتَّرحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحْلة و الرُّحْلة، والرِّحْلة: اسم للارتحال للمَسير، يقال: دَنَتْ رِحْلَتُنا، ورَحَلَ فلان وارتحل وتَرَحَّل بمعنى[1].

هذا عن المعنى اللغوي للرحلة أما اصطلاحا فيكاد يتفق المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوي وهو الانتقال والسير والسفر من أجل فائدة أو جلب منفعة من قبل الرحالة.

يقول ابن خلدون في تعريفه للرحلة: "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون

حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[2].

فالخطاب الرحلي عند ابن خلدون كما هند غيره من النقاد هو فن "من فنون الأدب العربي العريقة، فقد بدأ التأليف عنها عند العرب المسلمين الأوائل منذ القرن الثالث للهجرة- التاسع للميلاد- ولكنّهم لم يدوّنوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلاّ نادرا، أمّا معظمهم فقد أدمج حديث وأخبار تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان"[3].

ويعرفها حسني محمود حسين يقول: "إنها فن من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة... يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد... فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصر"[4].

ونبه القرآن الكريم على أهمية الرحلة لما لها من فوائد جمة على الفرد والمجتمع والدين فقال: "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"[5]، وكثيرا ما يتردد في القرآن تركيب "سيروا في الأرض"، ويقول في سورة الملك: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها"[6]، ولأهميتها في نشر الدين ونصرته أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالرحلة من مكة مكان الإيذاء إلى المدينة مقام الدعوة والأمن والأمان، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين الأوائل بالرحلة إلى الحبشة هربا من البطش وطلبا للأمن لأنه كان بها ملك لا يظلم عنده أحد.

وتبدو عناية ديننا الحنيف بالرحلة من خلال وجود ذكرها لفظا أو معنى مرات عديدة في القرآن الكريم والحديث الشريف[7].

وبداية التأليف للخطاب الرحلي فبدأ "في القرن الخامس للهجرة الموافق للحادي عشر للميلاد حيث دوّن كثير من الرحالة المسلمين أخبار أسفارهم، وتنقلاتهم، فذكروا المدن التي زاروها، والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد، وقيّدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، كما أتوا على وصف حياة السكان"[8].

وأماالخطاب الرحلي في المغرب العربي فيعتبر أدباؤه روادا أساسيين لأدب الرحلة العربي الكلاسيكي، وأخرج لنا عددا من كبار الرحالة العرب المعروفين من ابن بطوطة إلى العبدري فابن جبير فالتيجاني وصولا إلى الرحالة الذين توجهوا نحو الغرب منذ أواسط القرن السابع عشر من أمثال الحجوي والغساني والمكناسي والغزال، ويشير الدكتور محمد الفاسي الذي حقق عددا مهما من نصوص الرحلات إلى رحلة يحي الغزال الذي نقل أخبارها ابن دحية السبتي في كتابه"المطرب في أشعار أهل المغرب" بصفتها أقدم رحلة سفارية[9].

2- سيرة الشنقيطي وحياته وبيئته:

ولد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ونشأ وتربى وترعرع ودرس في بلاد شنقيط وهو الاسم القديم لموريتانيا (الجمهورية الإسلامية لموريتانيا)، وشنقيط معناها باللغة المحلية عند شعبها: العيون التي تشرب منها الخيول أو رباط الخيل، أما إذا

رُدت الكلمة إلى أصل عربي فإنها أتت من: سن قيط ومعناهما طرف جبل قيط، وهو جبل في المنطقة، وكانت تعرف أيضا بـــ: صحراء الملثمين أو بلاد التكرور.[10]

حظيت موريتانيا بزيارة الرحالة ابن بطوطة إلى مدينتها (ولاته) وهي منطقة تقع في شرق البلاد في رحلته المشهورة التي بدأها من مدينة طنجة عام 725هـــ فوصف التجارة فيها، وذكر القوافل الآتية من البلدان المجاورة لشراء الملح، يقول: "يجلب إليهم تمر درعة وسجلماسة، وتأتيهم القوافل من بلاد السودان فيحملون الملح، ويباع الحمل منه (بولاته) بثمانية مثاقيل إلى عشرة، ويباع في مدينة مالي بعشرين مثقالا، وربما وصل إلى أربعين مثقالا، وبالملح يتصارفون كما يتصارف بالذهب والفضة".[11]

وفي القرن الرابع الميلادي استقر العرب في المنطقة، ومع الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا أيام الأمويين في القرن السابع الميلادي دخلت موريتانيا في الإسلام، وارتبط تاريخها بتاريخ المغرب العربي، فشكلت جزءا من دولة المرابطين والموحدين والأشراف السعديين.[12]

وقبل أن نترجم للشنقيطي (الرحالة) تجدر الاشارة إلى أن الترجمة هي الحكاية والتاريخ لحياة شخصية ما سواء كان شاعرا أو أديبا أو عالما بالحديث عن شخصه وحقيقته وبيان لمتزلته ومكانته، وبالحديث أيضا عن سيرته العلمية بطلبه العلم وتتلمذه على شيوخه في بقعة واحدة أو بقاع كثيرة من الأرض، وتلامذته الذين ساهم في تعليمهم وإجازتهم ومصنفاته التي ساهم في نشرها وأودعها عقول الناس وخلفها في رفوف المكتبة العلمية، قال القاضي عياض عن بعض مشايخه "ما لكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا، ثم تذكروننا ولا تترحموا علينا"[13]، فلا يمكن إغفال تراجم هؤلاء العلماء ولا يمكن أن يستهان بها في عملية البحث لأنه كما قال السخاوي: "من ورخ مؤمنا فكأنما أحياه"[14].

يقول تلميذه الشيخ عطية محمد سالم في ترجمة الشنقيطي التي سمعها منه مباشرة: "هو محمد الأمين، وهو علم مركب من اسمين وذكر محمد تبرك، واللقب آبا بمد الهمزة وتشديد الباء من الإباء واسم أبيه: محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار من أولاد الطالب أوبك، وهذا من أولاد كريز بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر، جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين ويعرفون بـــ (تجكانت)"[15].

ما يعرف عن والده محمد المختار سوى اسمه، وهو جنكي من قبيلة (بني جاكان)، ولد ببلاد شنقيط وتوفي بها وقت كان ابنه محمد الأمين دون العاشرة من عمره، حيث كان ولا يزال آنذاك يحفظ جزء (عم) وقد ترك له ثروة من الحيوان والمال، حيث انتقل إلى بيت أخواله ليقوموا على رعايته وتربيته.[16]

أما أمه فجنكية أيضا، وولدت ببلاد شنقيط، وقد عمرت والدة الشنقيطي بعد وفاة زوجها ... ثم كانت وفاتها ببلادها بعد أن جهزت ولدها لطلب العلم وتحصيله، بل هيأت له كل سبله وذلك بعد أن أتم مرحلة البلوغ في السادسة عشر من عمره، وبمساعدة أخواله فرحا به وترغيبا له.[17]

ولد محمد الأمين الشنقيطي عام 1325هـــ[18]، وكان مسقط رأسه – رحمه الله – عند ماء يسمى (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن،[19] والقرية التي ولد فيها هي قرية (قرو).[20]

نشأ محمد الأمين الشنقيطي يتيما، فقد مات أبوه وهو دون العاشرة من سنه، فتكفلت أمه بتربيته عند أخواله، وهم بنو عمومة والده، حيث يقول عن نفسه: " توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء (عم) وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي وأمي ابنة عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد بن نوح جد الأب المتقدم،[21] ثم ماتت أمه بعد أتم مرحلة البلوغ.[22]

حفظ الشنقيطي القرآن الكريم على خاله عبد الله وعمره عشر سنوات، ثم يواصل قائلا :" تعلمت رسم المصحف العثماني عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرئ نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سندا بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وعمري ستة عشر سنة،[23] وهذا بعد أن تعلم قواعد حفظ الحروف الهجائية بحركاتها ونطقها وكتابتها وقراءتها.

بعد حفظ الشيخ لكتاب الله تعالى، قام بحفظ بعض المتون، ودرس بعض المختصرات في النحو والفقه والأدب والتاريخ والسيرة منها، دراسة لرجز (محمد بن بوجة) المعروف باسم (البحر) الذي تعرض فيه لكل كلمة جاءت في القرآن مرة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة من الكلمات المشتبهة وأفرد كل عدد بفصل.[24]

ومن العلوم الأخرى التي درسها يقول الشنقيطي :"وقد درست بعض المختصرات في فقه الإمام مالك كرجز الشيخ ابن عاشر، كما درست دراسة واسعة في الأدب على زوجة خالي أم ولد الخال أي أن ولد خاله كان يعلمه العلوم بالقرآن وأمه تعلمه الأدب"[25]

وعن العلوم التي تعلمها من زوجة خاله يضيف :"كما أخذت عنها مبادئ النحو كالأجرومية وتمرينات ودروس واسعة في أنساب العرب وأيامهم، والسيرة النبوية، ونظم الغزوات لأحمد بدوي الشنقيطي وهو يزيد عن 500 بيت، وشروحه لابن أخته المؤلف المعروف بحماد، ونظم عمود النسب للمؤلف، وهو يعد بالآلاف وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين لأنه مات قبل شرح ما يتعلق بالقحطانيين".[26]

هذا في بيت أخواله، أما عن بقية العلوم والفنون فقال: عن الفقه المالكي: "وهو المذهب السائد في البلاد، درست مختصر خليل، بدأت دراسته (الفقه المالكي) فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درسته عليه النصف من ألفية ابن مالك، ثم أخذت بقية الفنون على مشايخ متعددة في فنون مختلفة، وكلهم من الجكنيين"[27].

والشنقيطي مع هؤلاء العلماء والفقهاء درس عنهم الكثير من العلوم منها: النحو والصرف والأصول والبلاغة وبعض التفسير والحديث.[28]

وهناك علوم حصلها من غير الشيوخ، بل كون فيها نفسه بنفسه، يقول عنها:" أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة".[29] وارتبط بعدئذ بالمحضرة.

والمحضرة عبارة عن مجمع علمي يلجأ إليه الطالب بكتابة الأحرف على لوح من الخشب وعود من الحطب ودواة من الحجر، ملون ماؤها بالفحم، وبهذه القساوة من الطبيعة كان يبذل الطالب محمد الأمين الشنقيطي إلى أن أصبح أستاذ المحضرة.[30]

لقد كان للشنقيطي من الأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، ما لا يخفى على أحد ممن لازمه وخالطه بصفة مباشرة، فضلا عمن أخذ عنه وتلقى عليه وتعلم منه ورآه، وكذلك يشهد له بالخير كل من سمع عنه وتلقى علمه وقرأ كتبه، وليس من رأى كمن سمع.

يقول تلميذه الشيخ عطية محمد سالم: "أما من الناحية الشخصية في تقويمه الشخصي لسلوكه وأخلاقه وآدابه وكرمه وعفته وترفع نفسه وما إلى ذلك، فهذا يستحق أن يفرد بحديث، وإني لا أستطيع الآن تصويره ولا يسعني في هذا الوقت تفصيله، وما كان ـــ رحمه الله- يحب أن يذكر عنه شيء في ذلك، ولكن على سبيل الإجمال: لو أن الفضائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال في الرجال عنوان يجمعها لكان هو أحق به"[31].

ويضيف الشيخ عطية محمد سالم قائلا: "وإذا كان علماء الأخلاق يعنونون لأصول الأخلاق والفضائل بالمروءة فإن المروءة كانت شعاره ودثاره، وكانت هي التي تحكمه في جميع تصرفاته سواء في نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم من عرفهم أو لم يعرفهم، وقد قال فيه بعض الناس في حياته، إنه لا عيب فيه سوى عيب واحد، هو أننا نفقده بعد موته"[32].

قام الشيخ بأعمال جليلة في بيئته التي عاش فيها، وكذا في رحلته إلى أرض الحجاز والاستقرار بها، وتنوعت هذه الأعمال من قضاء وتدريس وفتيا، ونشاط في مختلف الهيئات الإسلامية ومحاضرات في مختلف المؤتمرات والندوات.

اشتغل الشنقيطي في بلاده بالدرس والفتيا والقضاء حيث يقول عنه تلميذه الشيخ عطية محمد سالم: "كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء: الدرس والفتيا، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه، ورغم وجود الحاكم الفرنسي إلا أن المواطنين كانوا عظيمي الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلا"[33].

لما انتهى الشنقيطي من رحلة طلب العلم بالمحاضر الشنقيطية عزم على الحج إلى بيت الله الحرام عن طريق البر وعلى نية العودة بعد أداء الفريضة، وكان كغيره في نفسه شيء غير قليل من رواسب الشبهات الملصقة بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما أن وصل إلى البلاد حتى اتصل ببعض علمائها وقرأ بعض كتب الدعوة من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وبعض رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعا، وكان هذا كافيا لتنقية عقله وفكره مما شابه من تدنيس الخصوم وجلاء الحقيقة أمام ناظريه، وانقلب ثَم عزمه على العودة إلى رغبة في البقاء.[34]

بعد أن فرغ الشيخ من أداء مناسك الحج، قضى عدة أيام بمكة المكرمة قبل أن يتوجه إلى المدينة المنورة قاصدا زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتقى بالشيخين عبد الله المزاحم وعبد العزيز بن صالح[35]، وفي المدينة التقى بهما رحمه الله وكان صريحا معهما في ما يسمع عن البلاد، وكانا حكيمين فيما يعرضان عليه ما عليه أهل هذه البلاد من مذهب في الفقه ومنهج في العقيدة، وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح.[36]

يعتبر التدريس في المسجد النبوي من أهم التدريس في كبريات جامعات العالم في نشر العلم، وهو الجامعة الأولى للتشريع الإسلامي منذ عهد النبوة ....وقبل مجيء الشيخ رحمه الله كان قبله الشيخ الطيب رحمه الله الذي توفي سنة 1363هـ، فكان جلوس الشيخ رحمه الله للتدريس في المسجد النبوي امتدادا لمن كان قبله مع من كان من العلماء بالمسجد النبوي آنذاك من تلاميذ الشيخ الطيب وغيرهم، وكان يدرس الشيخ في التفسير وختم القرآن مرتين.[37]

وفي أولى منابر العلم والتدريس في أرض الحجاز تلقى الشيخ من أهل المدينة ومسؤوليها وعلمائها كل الاحترام والتكريم، وأتيحت له كل الظروف في سبيل نشر العلم والمعرفة، فكان نفعه رحمه الله للمقيم والقادم للقاصي والداني نفعا عظيما.[38]

في سنة 1371هـ افتتحت الإدارة العامة للمعاهد في الرياض على معهد علمي تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة، واختير للتدريس في المعهد والكليتين نخبة من العلماء من داخل وخارج المملكة، وكان رحمه الله ممن اختير لذلك، فتولى تدريس التفسير إلى سنة 1381هـ حين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة.[39]

كان الشيخ الحفيد محمد بن إبراهيم آل الشيخ حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدرس في مسجد مشهور بـ (دخنة) في الرياض مع من كان يدعوهم من كبار العلماء الذين كانوا يدرسون بالرياض آنذاك، حيث كانوا يلقون دروسهم في مختلف الفنون بهدف إفادة طلبة العلم والعامة على السواء ومن هؤلاء الشيخ الشنقيطي حيث بدأ درسه في قواعد الأصول لكبار الطلاب وخاصتهم، ثم حضور العوام بعد ذلك والحرص على التلقي عنه، وقضى الشنقيطي عشر سنوات كاملة من 1371هـ / 1951م إلى غاية 1381هـ / 1961م حيث رجع إلى المدينة النور للتدريس في الجامعة الإسلامية التي افتتحت هناك في ذلك العام.[40]

توفي الشنقيطي ضحى يوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة من عام 1393هـ/10 يناير من عام 1974م[41].

من مؤلفاته التي خلفها نذكر على سبيل المثال:

أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن/ آداب البحث والمناظرة/ دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب/ رحلة الحج إلى بيت الله الحرام/ مذكرة الأصول على روضة الناظر/منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز/ نثر الورود على مراقي السعود.....الخ.

3- مسار الرحلة:

أ- خروج الشنقيطي لأداء حج بيت الله: بدأت الرحلة في السابع من شهر جمادى الآخرة، وحط عصا الترحال في العشر الأوائل من ذي الحجة من نفس العام، وكان الباعث على الخروج كما بين قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ آل عمران: 97، يقول الشنقيطي: "اعلم أنا خرجنا من عند أهلنا بجانب الوادي والبطاح والمياه والنخيل وودعنا كل قريب وخليل، والبين يهيج في القلوب الداء الدخيل، فترى ورد الخدود يطله جمود الدموع، والأعين تنكر السنة والهجوع، ماء العيون في الجفن حائر حسبما قال الشاعر:

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت وماء العين في الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظرة إلي التفاتاً أسلمته المحاجر

وكان يوم الخروج لهذه القاعدة الكبيرة لسبع مضين من جمادى الآخرة من سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف"[42].

وذكر الشنقيطي أنه عند المغادرة لبيته صحبه بعض تلامذته إلى أن أوصلوه إلى قرية (كيفا) وحسب وصفه فهي تقع في مسالك وعرة وأجاب في المدة الخفيفة التي أقامها هناك عن سؤال طرحته امرأة عن الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس[43].

ب- من شنقيط إلى بمكو (مالي): وبينما الشنقيطي وصحبه متوجهون إلى (تامشكط) نزلوا عند حي من قبيلة (الأقلال) فتلقوا منهم تمام الرعاية والإحسان وجرى حوار ونقاش بين الشيخ ومفتي ذاك الحي حول القياس الاستثنائي فأجاب الشيخ وأفاد وأقنع[44]، وذكر الشيخ في رحلته أنهم لما وصلوا (تامشكط) استقبلوا استقبال العلماء فزارهم قاضي القرية وحدثت مذاكرة حول سؤالين حول بيان كيفية استحالة تسلسل هيولى العالم وكذا تحقيق الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع[45]، فاكتفى الشيخ بالتفصيل في الإجابة عن القضيتين وشفى.

وواصل الشيخ طريقه مارا بقرية (العيون) فقابل من فيها من الفضلاء من أهلها وجرى حديث مفيد بين الشيخ وقاضي القرية الكريم[46]، وتوجه مع من كان معه إلى قرية (تنبدقة) فاستقبلهم قاضيها وأقاموا عنده أياما في غاية التبجيل والإحسان والإعظام والإكرام وجرت مذاكرات في فنون العلم طويلة ومختلفة[47]، وارتحلوا إلى قرية (النعمة) وهم على الجِمال وسألوهم عن مسائل عقدية ولغوية وأدبية فيها من القصة والطرافة ما يشد السامعين فأجابوا وأفادوا واستمتعوا كما فسر لهم الشيخ سورة الواقعة إجابة لطلب أهلها[48]، ثم ارتحلوا قاصدين (بمكو) بعدما باعوا جمالهم في قرية (النعمة) فركبوا السيارة، ومروا بقرى (النوارة) و(مبتى) و(سيكثو) و(صن) و(فاوه) و(دوينصه) و(همبري) و(انيامي)و (مرادي) و(مداوا) و(مرادي) و(كنو) و(كنته) و(جص) و(يوروى مادفرى) و(كمبارو) و(كسرى) و(فورلمى) و(بحر غزال) و(آتيه) و(أم حجر) و(أبشه) و(آدره) و(الجنينة) و(الفاشر) و(الأبيض) ومن هذه الأخيرة إلى الخرطوم عبر القطار وفي كل مرة يترك الركب بصماته في فنون العلم والمعرفة بينة جلية لا تمحى من أذهان من استضافوهم[49].

ج- الشيخ في أم درمان (السودان): من قرية (الأبيض) إلى (الخرطوم) يحدثنا الشنقيطي أنهم ما نزلوا إلا في قرية (وادي مدني) التي استقبلت الوفد الغادي إلى الحج، ويستوقفنا الشنقيطي طويلا في وصف المذاكرة والحوارات التي جرت بين

والمضيفين والمستضيفين في مسائل علمية ولغوية وفقهية وإعراب ومنطق وأصول وأشعار فأعطوا العجاب للطلبة الشباب من الذين كانوا يدرسون في معهد الديني بـــ (أم درمان)[50].

د- الشيخ في أرض الحجاز: وامتطى الشنقيطي ومن معه السفينة متوجهين إلى جدة بعد يوم وليلة في البحر وهناك أحرموا ولبوا إفرادا من غير قران ولا تمتع، وتحدث الشيخ في رحلته عن أفضلية الإفراد في الحج في المذهب المالكي ودخلوا مكة، وطافوا طواف القدوم، وسعوا بعده بين الصفا والمروة، ثم طافوا سبعة أشواط وتوجهوا يوم التروية إلى منى ثم عرفة في الغد عند طلوع الشمس ثم مزدلفة ثم رموا الجمرات ثم طافوا طواف الإفاضة، ثم تحللوا من كل شيء التحلل الأصغر ثم الأكبر وتمت مناسك حجهم.[51]

هذه باختصار رحلة الشيخ رحمه الله، والذي يقرأ كتاب "رحلة الحج إلى بيت الله الحرام" لمحمد الأمين الشنقيطي سيجد فيه الفوائد الكثيرة والعظيمة جدا، وهذه الرحلة المغاربية إلى الأرض المشرقية فيها من العلم ما لا يحصى نفعه لمن يريد الكتابة عن أدب الرحلة والتزود منه.

وفي الخطاب الرحلي يضمن الشنقيطي في رحلته كلاما كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وكثيرا من الأشعار والقصائد والشواهد الشعرية وذلك في صدد حديثه في فنون من العلم مختلفة مضاف إليها قصص من التراث ومن الواقع ومن سير الأوائل والأواخر ووصف بدقة للفضاءات والأمكنة والأزمنة والبيئات التي مر بها أو نزل فيها أو ذاكر فيها، تتخللها الكثير من الاستعارات والتعبيرات الأدبية التي استرسل فيها الشيخ من غير مكابدة ولا معاناة وهذا دليل على عبقرية الشيخ العلمية والمعرفية واللغوية ومن هذا كله كلام وتعبير خاص به هو وحده يطلع عليه كل من يقرأ رحلته أو باقي مؤلفاته.

ومهما يكن فإن رحلة الشنقيطي تحتوي على الكثير من المعلومات والحقائق التي لا غنى للجغرافي أو المؤرخ أو الفيلسوف أو الأديب أو اللغوي أو عالم المنطق عنها لمن أراد أن يدرس هذه الفترة المهمة من الحياة المغاربية والمشرقية، ويمكن أن يدرج هذا كله في ما يسمى بـــــ"أدب الرحلات" كفن من فنون الأدب العربي.

الهوامش والمراجع

[1]- ابن منظور(محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري): لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، دت، ج11، ص265، مادة (رحل)،

[2]- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004م، ص 560.

3 - الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع، الرحلات العربية مصدر من مصادر التاريخ، مكتبة الملك فهد للنشر، الرياض، 1431ه-2010م، ص:30.

[4] -حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، 1403هـ/1983م، ص6.

[5] - قريش: 1 و 2.

[6] -الملك: 15.

[7]- ينظر: أنساعد سميرة: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري: دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين امليلة، الجزائر، 2009م، ص ص15-20.

[8] - زيادة نيقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:3، 1986م، ص:15.

[9] – محمد الغساني الاندلسي: رحلة الوزير في افتكاك الاسير،حررها وقدم لها نوري الجراح، دار ارتياد الافاق، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص14 وما بعدها.

[10] – تللو نبيل: الموسوعة الجغرافية العالمية المصورة، دول العالم، دار علاء الدين، سورية، دمشق، ط1، 2005م، الكتاب الأول، ص 509.

[11] – ابن بطوطة (أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتي): رحلة ابن بطوطة دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 658.

[12] – تللو نبيل: الموسوعة الجغرافية العالمية المصورة، دول العالم، الكتاب الأول، ص 509.

[13] – الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، المجلد 10، بيروت، لبنان، الطبعة 3، 2006م، ص 268.

[14] – المصدر نفسه، ص 268.

[15] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2006، ج10، ص 274.

[16] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 10، ص 276.

[17] – الشيمي أحمد سيد حسانين إسماعيل: الشنقيطي ومنهجه في التفسير في كتابه، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج1، ص 72.

[18] – الشيمي أحمد سيد حسانين إسماعيل: الشنقيطي ومنهجه في التفسير في كتابه، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج1، ص 92، وسمعت هذا أيضا من ابنه الدكتور محمد في مقابلة أجرتها معه قناة المجد الفضائية.

[19] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 10، ص 275، والمعلومة نفسها أوردها ابنه محمد في الشريط المسجل الذي قامت بتصويره قناة المجد، وعنوان الشريط، "حياة إنسان" حلقة مخصصة للشيخ الشنقيطي.

[20] – المرجع نفسه،ج1، ص 93.

[21] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 10، ص 276.

[22] – الشيمي أحمد سيد حسانين إسماعيل: الشنقيطي ومنهجه في التفسير في كتابه، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج1، ص 97.

[23] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 10، ص 276.

[24] – المصدر نفسه، ج 10، ص 277.

[25] – نفسه، ج 10، ص 277.

[26] – الشنقيطي محمد الأمين: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، دار ابن تيمية، القاهرة، مصر، د ط،، د ت، ص 15.

[27] – المصدر نفسه، ص 15.

[28] – نفسه، ص 15.

[29] – الشنقيطي محمد الأمين: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص 15.

[30] – محمد الشنقيطي: ابن عم الشيخ الشنقيطي، قناة المجد، شريط يتناول حياة الشنقيطي بالتفصيل بعنوان (حياة إنسان).

[31] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان، ج10، ص 296.

[32] – المصدر نفسه، ج10، ص 296.

[33] – نفسه، ج10، ص 283.

[34] – الرومي فهد بن عبد الرحمان بن سليمان، اتجاهات التفسير في القرن 14هـ، مخطوط دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، 1404هـ/ 1405م، ج1، ص 122.

[35] – الشيمي سيد أحمد حسانين إسماعيل: الشنقيطي ومنهجه في التفسير، ج1، ص 217.

[36] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان، ج10، ص 284.

[37] – الشنقيطي محمد الأمين: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص 21 وما بعدها.

[38] – المصدر نفسه، ص 22.

[39] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان، ج10، ص 287.

[40] – الشيمي احمد حسانين إسماعيل: الشنقيطي ومنهجه في التفسير، ج1، ص 225.

[41] – الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان، ج10، ص 269.

[42] –الشنقيطي محمد الأمين: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، دار ابن تيمية، القاهرة، دت، دط، ص35.

[43] –المصدر نفسه، صص36-41.

[44] –نفسه، ص41وما بعدها.

[45] –نفسه، ص ص 42-45.

[46] –نفسه، ص ص 46-49

[47] –نفسه، ص ص49-61.

[48] نفسه، ص ص61- 78.

[49] –المصدر السابق: ص ص 78-101.